المقدمة

هذا الأنصاري المغربي، ذو العقل الحصيف، والفكر المنير، والثقافة الواسعة، والشعور المشتعل، والحِسّ الرهيف، والذي يبيت مؤرقًا بهموم الأمة وأوجاعها، وما تعانيه من تخلف، وتعيش عليه من انحسارات فكرية وإيمانية، وقصور في مَدَيات الإدراك، وهبوط وانهيار في صحتها الروحية، وتعطل لقدراتها الحياتية... هذه الأمور جعلته -لا أقول يصاب بالإحباط- بل بالرُّعب الْمُشِلّ، والخوف من مصير هذه الأمة، ومن انحدارها نحو مجاهيل غامضة لا يُعرَفُ أولها من آخرها..

فراح ينكب على القرآن الكريم يقرأه تعبُّدًا وتفكرًا، مفتّشًا بين كلماته وآياته وسوره عن إرهاصات استئناف الأمة لدورة زمانية جديدة تستعيد فيها صحتها الإيمانية، وقدراتها الإدراكية، وأمجادها الحضارية، وتستدعي إرادتها في السعي إلى فهم نفسها، وإدراك أبعاد ذاتها، فكلّما وَجد معلمًا من معالم الطريق إلى هذه "الاستئنافية"، وإشارة دالَّة عليها، سجَّلها على صفحة ذهنه، واختزنها في ذاكرته... ثمّ مضى بعد ذلك يقرأ "السنة النبوية الشريفة" تعبُّدًا وتفكرًا كذلك، فتوقف طويلاً إزاء جملة من الأحاديث النبوية الشريفة المبشرة بهذه "الاستئنافية" بشروطها وأشراطها.. ثم ساح في الأرض زائرًا لأقطار متعددة من العالمين العربي والإسلامي وهو يفتش عن هذه المعالم والدلالات والإشارات في الأشخاص

والجماعات، وبعد المزيد من البحث والاستقراء والاستقصاء، وجَدَ أنه لم يحْظَ بضالته التي جاء ينشدها في هذه الأقطار، ولم يعثر على ذلك التطابق بين خزينه الدلالي والإشاري وبين ما هو قائم بالفعل على أرض الواقع، وبصدد ذلك يقول رحمه الله: "إن العلامات التي جئتُ بها، وأبحث عَمَّنْ تنطبق عليه ولم أجدها في بلدي ولا في أي بلد آخر من كثير من بلدان العرب التي زرتُها، وفيها دعاة ومصلحون وحركات إسلامية قوية جدًّا، ولكن هذه العلامات كانت ناقصة دائمًا، أجد بعضها ولا أجد البعض الآخر... ولذلك قلت آنفًا هذا قد يكون يشبه الحق لأن بعض العلامات موجودة فيه، وبعض العلامات الأخرى غير موجودة، إذن هذا ليس هو المطلوب"[1].

ولولا أنه كان يمتلك من تماسك النفس ما يجعله قادرًا على تحمل محن الإحباطات التي تتابعث عليه الواحدة تلو الآخرى وهو يفتّش عن بارقة أمل في شخص أو جماعة، لما استطاع أن يواصل حياته الفكرية والبحثية... لقد تأوّه، وزفر الكثير من الزفرات والكثير من الحسرات لكنه لم يفقد الأمل أبدًا...

وهو يرى أنّ شأنه في هذا البحث المضني شأن الرعيل الأوائل من الصحابة الذين حدثهم الرسول ﷺ عن التابعي الصالح "أويس القرني ﷺ" وذكر لهم علاماته ودعاهم إذا ما التقوه أن يطلبوا منه الدعاء لهم، لأنه مستجاب الدعاء، فلم يلتقوه إلا في زمن عمر بن الخطّاب ﷺ الذي عرفه وتيقّن من شخصه من خلال العلامات التي ذكرها الرسول ﷺ، وطلب منه الدعاء..

---

[1] رجال ولا كأي رجال، ص:٥٤.

فأما "أويس القرني ﷺ" صاحب هذا العصر، الذي ظلَّ "الأنصاري" يفتّش عنه حاملاً علاماته في خزينة فكره، فليس بالضرورة أنْ يكون شخصًا بعينه، فربما تمثل في جماعة تحمل معناه وتتصف بصفاته وتدل عليه بعلاماته، وربما يكون فردًا يعيش في جماعة، أو جماعة تعيش في فرد، أو فرد وجماعة ينفذ أحدهما في الآخر، ويسري روح أحدهما في روح الآخر، وهذا ما التقاه "الأنصاري" رحمه الله في "النورسي" وفي رسائله "رسائل النور" وفي طلبته.

ففي "إسطنبول" يستطيع أن يرى المنهج الإبداعي الذي يلتزم به أبناء "الفتح"، ويرى كذلك روح "أويس القرني" وهي تظلهم أفرادًا وجماعات، وها هو يرى ويعجب ويذهل من تهافت الذين يلتقونهم من الناس عليهم وطلب الدعاء منهم، لقد أحيوا سنّة الدعاء التي كادت تندثر وتختفي في فوضى الخلط بين المفاهيم، حتى كادت ثقافة الدعاء تبهت عند الكثير من الجماعات على الرغم من الحديث الشريف الذي يقول: «الدعاء مخ العبادة»... فالدعاء بشقَّيه اللساني والفعلي والعملي هو إكسير الدعوات الربّانية؛ فالأعمال والأقوال ما دامت تنطلق من معين الإيمان في الإنسان فهي دعوات وتضرعات ترفعها الملائكة إلى أعلى علّيين.

وأما مصطلح "الخدمة" الذي عرفت به دعوة "فتح الله كولن"، فهو مصطلح مبتكر لم تعرفه الدعوات من قبل، ينبئ عن فهم عميق ودقيق لأصل الدعوة الربّانية وفلسفتها وذلك في تكريس الدعاة لأنفسهم في خدمة الإنسان، الفرد والجماعات في أخص خصائص وجودهم وهي خاصية الإيمان بالله والإيقان بوجوده تعالى، وهذا المصطلح هو الذي جعل "الأنصاري" رحمه الله يصاب الذهول والإعجاب للمعاني العظيمة

الذي ينطوي عليها، وهذا المصطلح هو مفخرة هذه الجماعة لأنها من عظيم تواضعها تكتسب شرف خدمة الإنسان لا بل خدمة البشرية بأسرها وإنقاذها من انحرافاتها الخطيرة عن جادة المنهج الإلهي.. ومخطئ شديد الخطأ مَنْ يظنّ أنّ هذه الخدمة دائرة مغلقة على نفسها، بل على العكس من ذلك، فحقيقة وجودها ترتبط بحقيقة كل موجود من مخلوقات الله تعالى.

وهذه الخدمة المفتَّحة الأبواب، يَؤُمُّها كُلَّ يوم الجَمُّ العديد من أخيار الناس، يريدون الانضواء تحت رايتها، أو الاقتباس من بعض أنوارها، أو التَّعرف على بعضٍ من معارفها.. لقد كتب "الأنصاري" رحمه الله العديد من المقالات في مجلة "حراء" التركية الإسطنبولية مبديًا إعجابه ومشيدًا بأعمال رجال هذه الخدمة التي لمسها لمسَ اليد واطّلع عليها عن كثب والتي تكاد تبلغ مرتبة الإعجاز الخارق لكل العاديات والمتعارفات، حتى أنه رحمه الله وصف رجال الخدمة وشبابها بأنهم "رجال ولا كأيّ رجال" لما ينجزونه من خدمات ويقومون به من أعباء تنوء بها وتعجز عنها دول وحكومات في شتّى مجالات الخدمات الاجتماعية والإنسانية والتربوية والتعليمية.. إنها سطور بينات واضحات لمن يريد أن يقرأ، كأنّ القلم العلوي هو الذي يكتبها ويسطّرها، أو يعين عليها، أو يسهم في خلقها، إنها أعمال تَمَسُّ الأكباد المؤمنة بنفحات محرابية، ورعاية إلهية، وسر من أسرار عنايته تعالى للمخلصين من عباده المؤمنين... إنهما أعمال بينة الإشارة، جهيرة الصوت، مجلوة بصبح من أصباح اليقين الحق، مع حصافة العقيدة، والتجرد الكامل للحق حيثما وجد، وفي أي مكان لمع نوره وسطعت شمسه..

إنّ هؤلاء الرجال "وأيُّ رجال" كما يصفهم "الأنصاري" رحمه الله من

خلال أحدى مقالاته على صفحات "حراء" أصحاب معانٍ لا أصحاب ألفاظ، أبدانهم في خدمة أرواحهم، تُسْتَهلَك وتَشْحُبُ وتمرض وربما تموت.. يعملون كخليّة نحل، لا تعجبهم المظاهر الجوفاء، ولا استعراض العضلات، ولا الأقاويل والثرثرات، أَيِّدو الركن، باسلو الإقدام، عزاء لليائسين، سلوان للحزانى البائسين، جياشو الصدور، مفعمو الأفئدة بينابيع الإيمان، إنهم -ولا فخر- أهم ما تحتاجه "الدنيا" وتتوق إليه في هذا العصر الأجوف والأجرد، وأكاد أقسم غير حانث أنْ لو بُعِثَ اليوم "أويس القرني" من قبره ونظر إليهم لحار وقال في انشداه واندهاش: "لستُ أدري أأنتم أنا..؟! أم أنا أنتم..؟!".

لقد سكب "الأنصاري" رحمه الله فوق صفحات "حراء" حرارة وجدان شريف المحتد، وأشعل فيها وقدة شعور طاهر كبير... إنّ مقالاته وكتبه شكَّلتْ صرحًا فكريًّا يضرب عميقًا في أجواء الفضاء الفكري في العالَمَين العربي والإسلامي، مستخدمًا لبناته من معاني أفكار الخدمة، ومن مفردات معاني راعي الخدمة "فتح الله كولن"... وهذه المقالات والكتب أصبحت اليوم صفحة مهمة من صفحات تاريخه الفكري والثقافي مِمَّا دفعنا لكي نجعل من هذه المقالات إضمامة عالية وثرية نودعها هذا الكتاب ونهديها لمحبّي "الأنصاري"، من رجالات المغرب ومن أصدقائه وتلامذته ومعارفه واعترافًا منا بفضله العميم وجهده الكبير في تعريف المغاربة إخواننا في الدين بالخدمة وأفكارها ورجالها، رحم الله "الأنصاري" وجمعنا وإياه في جنته ومستقر رحمته..

أديب إبراهيم الدباغ